اللغة العربية بأسيوط
المجـلة العلميــة

أسماء القرآن الكريم فى الزهراوين
(دراسة بلاغية)

إعداد
د ./ معوض محمد الخولى

(العدد التاسع والعشرون ـ الجزء الثالث نوفمبر ٢٠١٠)

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، وأصلي وأسلم وأبارك على من نزل هذا الفرقان على قلبه ليكون للعالمين نذيرا . وبعد

لا ريب أن من أنفس ما تُنفق فيه الأعمار ، ومن أجل ما يُتعبد به رب العزة – تقدست أسماؤه – هو العكوف على كتاب الله تعالى " القرآن " استظهارا وتدبرا وفهما وعملا : { كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ } .

فهذه دراسة تسعى إلى الوقوف على أهم الخصائص البلاغية لأسماء القرآن الكريم في الزهراوين مع تبيان أهم المقتضيات للتعبير عن القرآن باللفظة هنا مقابل اللفظة الأخرى هناك، فالألفاظ في هذا السياق وما جاء على شاكلته (تختلف ولا تراها إلا متفقة وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحاً تداخلك بالطرب وتُشرب قلبك الروعة، وتنتزع من نفسك حس الاختلاف الذي طالما تدبرت به سائر الكلام وتصفحت به على البلغاء في ألوان خطابهم وأساليب كلامهم وطبقات نظامهم مما يعلو ويسفل أو يستمر وينتقض أو يأتلف ويختلف ... فأنت ما دمت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام) [1] .

***وتأتي أهمية تلك الدراسة** : من كونها في مفردات القرآن الحكيم والتي هي : (لب كلام العرب وزبدته ، وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – الرافعي – ت عبد الله المنشاوي – صـ ٢٠٥ – مكتبة الإيمان – أولى ١٤١٧هـ .

نظمهم ونثرهم ، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة ، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة) (١) . فضلا عن كون هذه الدراسات نوعا من القيام بالنصيحة لكتاب الله تعالى .

* **وتأتي أهمية تلك الدراسة** : من جهة ثانية وهي كونها في الزهراوين (البقرة – آل عمران) فالأولى (سنام القرآن) (٢) والثانية جاء في فضلها أن عثمان بن عَفان قال (من قرأ سورة آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة) وعن ابن عباس قال : (بِتّ في بيت رسول الله فنام رسول الله حتى إذا كان نصفُ الليل أو قبلَه بقليل أو بعدَه بقليل استيقظ رسول الله فقرأ الآيات من آخر سورة آل عمران) (٣) . وفيهما قال (ﷺ) فيما يرويه عنه أبو أمامة : قال سمعت رسول الله يقول : (اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران) وعن النّوّاس بن سِمْعَان : قال سمعت النبي يقول : (يؤتَى بالقرآن يوم القيامة تقدمُه سورة البقرة وآل عمران) (٤) .

* هذا وقد اشتمل البحث بعد المقدمة على (   ) مباحث : ـــ

- من أسرار التعبير عن القرآن بـــ " الكتاب " .

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني ٤/١ – موقع الدرر السنية الالكتروني

(٢) المستدرك / وسنام كل شئ أعلاه ، وهذا ليس علما لها ولكنه وصف تشريف، وقال خالد بن معدان : إنها فسطاط القرآن ، والفسطاط هو ما يحيط بالمكان ، وسميت البقرة بذلك لإحاطتها بأحكام كثيرة . انظر : مقدمة التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور – صـــ ١٧٩ – دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ١٩٩٧م .

(٣) سنن الدارمي – باب فضل آل عمران – حديث ٣٤٣٩ – ت . حسين سليم أسد الداراني – دار المغني للنشر

(٤) صحيح مسلم – كتاب الصلاة – باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة

- من أسرار التعبير عن القرآن بـــ " القرآن "
- من أسرار التعبير عن القرآن بـــ " الموصولية "
- من أسرار التعبير عن القرآن بـــ " الآيات "
- من أسرار التعبير عن القرآن بـــ " الفرقان "
- من أسرار التعبير عن القرآن بـــ " الذكر الحكيم "

* ثم خاتمة اشتملت على أهم نتائج الدراسة وأبرز التوصيات

* ثم ذيلت بفهرس للمراجع والمصادر

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده ، وما كان من تقصير وزلل فمن نفسي وكتاب الله منه برئ ، وحسبي أني اجتهدت ، فاللهم فهمني مرادك من كتابك ، واكتب لي عندك ـــ بما حاولته في فقه بلاغة تنزيلك أجرا ، وألا تحمل علي فيما قصرت فيه إصرا ، واجعل ذلك العمل مما تغفر به ذنبي وتستر به عيبي وتنور به قبري ، وتغفر به لوالديّ ولمشايخي ، ولذريتى وزوجي ومن له حق علي .

يا أكرم الأكرمين

كتبه

معوض محمد الخولي

من جوار البيت الحرام

١٤٣١هـ

من سمات التعبير عن القرآن بالكتاب

م	الشاهد	الموضع
١	ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ	البقرة ٢
٢	رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ	البقرة ١٢٩
٣	إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ...	البقرة ١٧٤
٤	ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ	البقرة١٧٦
٥	نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ	آل عمران ٣
٦	أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ	آل عمران ٢٣
٧	مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ	آل عمران٧٩
٨	لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ	آل عمران ١٦٤

- " الكتاب " اسم شائع من أسماء الوحي المنزل على قلب سيدنا محمد (ﷺ) .
- ومادة (ك – ت – ب) تدور حول الضم والجمع ، من قولهم : (كتبت الأديم : إذا ضممت الجلد إلى الجلد بالخياطة ، وكتُبت البغلة : إذا جمعت شُفري رحمها بحلْقة. ومنه الكتيبة : سميت بذلك لاجتماع بعضها إلى بعض) [1] .
- ولعل في استصحاب معني الجمع الدائر عليه أصل مادة " الكتاب" ما يفيد (التناسق والتناسب والتآخي والتناغي بين آيات وكلمات السورة من وجه وسوره جميعاً فيما بينها من وجه آخر ، لأن العزيز الحكيم العليم لا يجمع بين ما تنافر في ظاهره وباطنه ، وهو الذي ألَف بين أرواح خلقه فيما هدي إليه سيدنا محمد (ﷺ) ، فكما أن قلوب الخلق جنود مجندة فكذلك سور القرآن أرواح متآلفة فعالم الإنسان من خلقه، وعالم القرآن من أمره " ألا له الخلق والأمر " الأعراف (٥٤) [2] .
- كما أن استصحاب معنى الجمع على (الكتاب) يجعله محمولا إما على اسم الفاعل : فيصير " الكتاب " بمعنى الجامع ، أو على اسم المفعول فيصير الكتاب" بمعنى المجموع .

---

(١) راجع : لسان العرب (ك ت ب) ، مقاييس اللغة لابن فارس (ك ت ب) .

(٢) العزف علي أنوار الذكر د. محمود توفيق سعد ص ٦٥ ، ٦٦ ، ط. دار الكتب الجامعية. شبين الكوم – أولى – ١٤٢٤هـ .

- وأيما كان الأمـــر فإن هذا اللقب كما يذكـــر العلامة د / محمد عبـــد الله دراز ــ طيب الله ثراه ــ

(لا يعنى فقط أن هذا المسمى جامع للسور والآيات،أو أنه مجمـــوع تلك السور والآيات من حيث هي نصوص مؤلفة على صفحات القلوب أو من حيث هي نقوش مصفوفة في الصحف والألواح ، أو من حيث هي أصـــوات مرتلة منظومة على الألسنة ، بل يعنى شيئا أدق من ذلك كله وهو أن هـــذا الكلام قد جمع فنون المعاني والحقائق وأنه قد حـــــشد فيه كتائب الحكـــم والأحكام ،فـــإذا قلت " الكتاب " أو " القـــرآن " كنت كأنما قلـــت " الكـــلام الجامع للعلوم " أو العلوم المجموعة في كتاب " وهكذا وصفه الله تعـــالى إذ أخبـــــر بـــأنه نزلـــــه " تبيانا لكل شئ " النحل ٨٩) [١] .

- كما أرى أن استحضار معنى الجمـــع فـــي لفظـــــة " الكتـــاب " فيـــه استدعــــــاء لكل جوانب الكتاب ودلالة أن الهدايـــة كامنـــة فـــي كـــل أجـــزاء الكتاب ، وليس في بعض دون بعض ، وإذا استقام لـــي هـــذا ففيه تعريض من طرف خفي بأهل الكتـــاب مـــن " المغـــضوب علـــيهم والضالين " ، الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض .

- **كما تدور مادة (ك ت ب) حول وصل الشيء المنفصل بوصله خفية من أصله كالخياطة في الثوب بشيء من جنسه ليكون أقرب لصورة اتـــصاله الأول.**

(١) النبأ العظيم – د محمد عبـــد الله دراز – هـــامش صـــــ ١٣ – نـــشر دار الثقافـــة – الدوحـــــة ١٩٨٥م .

- وعليه يمكن القول إن إطلاق لفظه "الكتاب" على الوحي المنزل على قلب سيدنا رسول الله مستصحب هذه المعاني جميعا : فقد (سُمَي كتاباً لأنه جُمع بعضه إلي بعض)[1] .
- ومن معاني الجمع فيه كونه جامعا لثمرات الكتب والعلوم السابقة على حد قول الراغب :-

((... أن الله تعالى كما جعل النبوة بنبوة نبيا مختتمه ، وجعل شرائعهم بشريعة من وجه منتسخة ، ومن وجه مكملة متممه كما قال تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم " المائدة (٣) ، جعل كتابه المنزل عليه متضمناً لثمرة كتبه ،التي أولاها الأمم كما نبَه عليه بقوله " يتلو صحفاً مطهرة " البينة (٢ ، ٣))[2] .

- وهذا الجمع – أراه – لونا من ألوان الهيمنة التي خص الله بها آخر كتبه "القرآن" على سائر كتبه السابقة (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)[3] .
- ومما يرشح معنى الهيمنة هنا تعريف الكتاب بالألف واللام ففيه إشعار بمكانته وأنه الجدير بإطلاق هذا الاسم عليه من بين الكتب المنزلة ،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير "لابن الجوزي" – ص ٣٨ – ط. المكتب الإسلامي – دار ابن حزم– بيروت١٤٢٣ / ٢٠٠٢ م .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن – مقدمة الجزء الأول – ، مفاتيح الغيب– مقدمة سورة البقرة .

(٣) المائدة ٤٨

وكأن (ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الـذي يـستأهل أن يُسمَى كتاباً)[1] .

- فهو بحق الكتاب الموصوف بتمام الكمال وغايته .
- ولعل مما يتصل بذلك السياق هنا هو تشريف ذلك الكتاب باستخدام إشارة البعيد تعظيما لشأنه.
- ولذا لما ختمت الفاتحة بـ " اهدنا الصراط المستقيم " جاء صدر سورة البقرة جواباً لهذا الطلب بقوله "ذلك الكتاب" يعني – والله أعلم بمـراده– الصراط المستقيم طريقه ذلك الكتاب فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. ولعل مما يقوى ذلك هو وصف "الكتاب" بعـد قليـل بكونـه "هدى"
- وإذا صح لي ذلك فإن ذلك يمثل مظهر من مظاهر الاعتلاق بين سـورة الفاتحة وسورة البقرة .
- ثم إنه لما كان من مقاصد ذلك الكتاب هو حفظ مقاصد وهدايات الكتـب السابقة عليه لكونه شاهداً مؤتمناً على ما فيها ومهيمناً عليه كان التعبير بالكتابة أوفى مناسبة للمعنى. فكون شهادته وائتمانـه مكتوبـة أدمـغ وأدخل في الحُجَة.

(١) الكشاف ١/٤٣ (ط . دار إحياء التراث العربي ــ نسخة مكتبة مشكاة الالكترونيـة) روح المعاني ١/ ١٣٦ــ ط .دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ نـسخة مكتبـة مـشكاة الالكترونية)، أبو السعود ١/٢٥ ــ ط . دار إحياء التراث العربـي ــ نـسخة مكتبـة مشكاة الالكترونية)

- ويلاحظ كثرة استعمال "الكتاب" في سورة البقرة ' ولعل ذلك راجع إلى أن سورة البقرة مدنية وكثرت فيها العناية بالأحكام والتشريعات وذلك أقرب رحماً لهذه الأحكام وأمس لتلك التشريعات فبيان هذه الأحكام كتابة أولى منها قراءة، فسمي القرآن كتاباً (لكون الله تعالى ألزم فيه "تكاليف على الخلق) [١] .
- وأرى أن بلاغة التعبير بـــ " الكتاب " هنا في صدر سورة البقرة آتية من كمال مناسبتها لقوله تعالى: "لا ريب" حيث أفاد التعبير بالكتابة – والتي تعني ضم وجمع ما هو ظاهر جلي[٢] . - أن ذلك الكتاب لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه وذلك لوضوح دلالته وسطوع برهانه .
- ونفي الريب عن الكتاب هنا لا يعني ((أن أحداً لا يرتاب فيه ، وإنما المنفي كونه متعلقا للريب ومظنة له) [٣] . فهو بحق الكتاب الموصوف بتمام الكمال وغايته.
- ولعل مما يساند هذا المعنى ويعضده مجيء وصف القرآن "بالهدى" على وزن القِلَة (فلم يجيء من المصادر بهذه الزنة إلا قليل كالتُقي والسُرى والبُكى) [٤] . ، فقد يكون في ذلك إشارة إلى أن مصادر الهدى قليلة ولا

---

(١) انظر: روح المعاني ١/ ١٠٦ .
(٢) أبو السعود ١/٢٤ .
(٣) الكشاف ١/٤٤ ، وروح المعاني ١/ ١٠٦ .
(٤) روح المعاني ١/ ١٠٦ .

يجدها الإنسان إلا في رحاب "ذلك الكتاب" ، حتى إن أهل الكتب السابقة أعوزهم هذا الهدى فسألوا الله إياه " اهدنا الصراط المستقيم "

- كما أرى – والله أعلم بمراده– أن التعبير بـ "الكتاب" هنا: باستحضار معناه اللغوي وهو:– وصل الشيء المنقطع بوصله خفية من أصله وجنسه ـــ فيه تعريض بأهل الكتاب" المغضوب عليهم والضالين " الذين قطعوا "ذلك الكتاب" عن أخويه: التوراة والإنجيل ، رغم خروجها من مشكاة واحدة !
- <u>ومما يدل على ذلك ويقويه عندي</u> :–
- اختتام الفاتحة بالحديث عن أهل الكتاب والتعريض بهم ثم افتتاح سورة البقرة بذلك التعريض أيضا ، كما في قوله تعالى " والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون " ، ففيه كما يقول الزمخشري : (تعريض بأهل الكتاب، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته، وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأن اليقين منْ آمن بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك) [1] .
- ومدقق النظر في سورة البقرة يجد كثرة تكرار لفظه "الكتاب" عن غيره من أسماء القرآن الأخرى.
- ولعل في ذلك تناغي وتناسق بيِّن مع المقصود الأعظم لهذه السورة والذي هو : (إقامة الدليل على أن الكتاب هدى يتبع في كل حال وأعظم

(١) الكشاف ١/٥٣ .

ما يهدي إليه الإيمان بالغيب ومجمعه الإيمان بالآخرة ، ومداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عن قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب ، فلذلك سُميت بها السورة) [1] .

- وعليه فالمعنى الرئيس الذي هو كالحجر الأساس في بنا ، سورة البقرة هو "ذلك الكتاب" ومنه انسلت بقية المعاني.
- والسعي في معرفة المقصود الأعظم من السورة جد ضروري في الدرس البلاغي لأنه كما يذكر البقاعى ((من حقق المقصود من كل سورة عرف تناسب آياتها وقصصها وجميع أجزائها) [2] .
- ثم إن كثرة ورود لفظه " الكتاب " في سورة البقرة فيه ملمح آخر وهو :

التركيز والاهتمام بصفة الكتابة للقرآن الكريم ، لا سيما حين نتذكر أن سورة البقرة من أواخر ما نزل من القرآن ، وهذا معناه أن صورة كتابة القرآن قد اكتملت أو أوشكت على الكمال –على خلاف بين أهل العلم في كون النبي (ﷺ) قد لحق بالرفيق الأعلى والقرآن مكتمل الكتابة. وفي التركيز على صفة الكتابة هنا إشارة إلى مظهر من مظاهر تأييد سيدنا رسول الله بالمعجزات .

وفي هذا يُفصِّل الطاهر بن عاشور الأمر بقوله : (وإنما سُمى كتاباً لأن الله أمر رسوله (ﷺ) أن يكتب كل ما أنزل عليه منه ليكون حُجة

(١) نظم الدرر ١ / ٥٥.

(٢) مصاعد النظر للبقاعي ــ نقلا عن العزف على أنوار الذكر صـ٧٠ .

على الذين يدخلون في الإسلام ولم يتلقوه بحفظ قلوبهم. وفي هذه التسمية معجزة للرسول (ﷺ) بأن ما أوحي إليه سيُكتب في المصاحف ... ولذلك اتخذا النبي (ﷺ) من أصحابه كُتاباً يكتبون ما أنزل إليه ، من أول ما ابتدئ نزوله .... وقد وجد جميع ما حفظه المسلمون في قلوبهم على قدر ما وجده مكتوبا يوم أمر أبو بكر بكتابة المصحف) [1] .

بعكس **أول ما نزل من القرآن ، فقد وضح فيه التركيز على صفة القراءة والإقراء** ومنها على سبيل المثال:-

" سورة المزمل " – وهي من أوائل ما نزل من القرآن – فقد جاء فيها قوله تعالى : (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) وكان ممكنا في غير القرآن أن يقول :- فاقرءوا ما تيسر من الفرقان أو التنزيل – الكتاب ...

- ثم أن الفعل "اقرءوا" كان يمكن أن يغني عن إعادة لفظة "القرآن" بعدها غير أنه التركيز والتأكيد على صفة القراءة في العهد الأول لنزول القرآن.
- ومما يدعم فكرة شيوع التعبير بلفظة "القرآن" في أول ما نزل من السور أني وجدت –باستقصاء سريع– **جُل المواضع الوارد فيها لفظة القرآن "مكية"** ترى ذلك واضحاً في :-

- " سورة العلق " – أول ما نزل من القرآن – (اقرأ باسم ربك الذي خلق ... اقرأ وربك الأكرم)

(١) التحرير والتنوير ١/٧٠ – المقدمة الثامنة : في اسم القرآن وآياته وسوره .

- "سورة المزمل" – ثالث ما نزل من القرآن، وقد سبق الحديث عنها ـــــــ (فاقرءوا ما تيسر من القرآن)
- "سورة يس" (يس والقرآن الحكيم) ونزلت بعد سورة الجن.
- "سورة الجن" (... فقالوا إنا سمعنا قراءنا عجباً) ونزلت بعد سورة الأعراف.
- "سورة الأعراف" (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) ونزلت بعد سورة ص.
- "سورة ص" (ص . والقرآن ذي الذكر) ونزلت بعد سورة القمر.
- "سورة القمر" (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ونزلت بعد سورة الطارق.
- "سورة الطارق" (والأرض ذات الصدع. إنه لقول فصل).

وهذا يعكس منزله القراءة والكتابة كمظهر من مظاهر حفظ (ذلك الكتاب) كما تعهد به مُنْزِلُه –جلت قدرته– في قوله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[1] .

- **ثم إن شيوع إطلاق لفظي " الكتاب " ، " القرآن " على الوحي المنزل على سيدنا رسول الله (ﷺ) ليدل على ما يجب أن تقوم به الأمة تجاه كتابها الخاتم ففي اللفظيين إشارتان إلى نوعين من أنواع حفظ الكتاب الخاتم : –**

(أ) حفظه في الصدور.

(ب) حفظه في السطور.

---

(١) الحجر ٩ .

فلا قيمة لحفظ ما لم يطابق الرسم المجمع عليه عند أهل العلم الثقات كابراً عن كابر والمتواتر عن سلفنا الصالح .

كذا لا قيمة بكتابة تُعارض ما ضمته صدور الحفظة الثقات تواتراً إلى سيدنا رسول الله (ﷺ) [1] .

- ومما يتصل بهذا السياق أن شيوع إطلاق لفظتي "القرآن والكتاب" على الوحي المنزل على قلب سيدنا محمد (ﷺ) :- فيه تأكيد على ربانية مصدر هذا الكتاب المقروء ، فكونه مكتوبا ومحمد (ﷺ) أُمي لا يقرأ ولا يكتب – بشهادة أعدائه- أبلغ حجة في كونه من عند الله ، وأدفع دليل على صدق محمد (ﷺ) المُبلغ عند الله مراده ومن الخلق .
- كما أرى – والله أعلم بمراده – أن كثرة ورود لفظة "الكتاب" في سورة البقرة – مراداً به القرآن – فيه مناسبة لكثرة الحديث عن اليهود في هذه السورة ، باعتبارهم أهل كتاب مسطور وهو "التوراة" وفي ذلك تذكير دائم بوحدة مصدر الكتابين. فلم الإيمان بأحدهما والكُفر بالآخر؟!

"**يتلوا عليهم آياتك ويُعلمهم الكتاب والحكمة** " البقرة ١٢٩

- الآيات جمع آية وهي الجملة من القرآن الكريم.
- هذا وقد سميت الجملة من القرآن آية (لدلالتها علي صدق الرسول (ﷺ) بمجموع ما فيها:- من دلالة صدور مثلها من أُمي لا يقرأ ولا يكتب. ما نُسجت عليه من نظم أعجز الناس عن الإتيان بمثله. ما

(١) انظر : النبأ العظيم صـ ١٣ .

اشتملت عليه من الدلالة القاطعة علي توحيد الله وكمال صفاته دلالة لم تترك مسلكاً للضلال في عقائد الأمة ، بحيث أمنت هذه الأمة من الإشراك) [١] .

- والمراد بتلاوة الآيات هنا -والله أعلم بمراده- قراءتها عليهم قراءة توقفهم وتُبيْن لهم كيفية تلاوتها ، أي أن القراءة هنا مراد بها تعليم كيفية التلاوة.
- وذهب بعضهم إلي أن المراد بالتلاوة هنا هي قراءة التذكير[٢] . وجمع بعضهم بين الحسنيين فقال : (والتلاوة تختص بإتباع كتب الله المنزلة ، تارة بالقراءة ، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب ، أو ما يتوهم فيه ذلك ، وهو أخص من القراءة ، فكل تلاوة قراءة ، وليس كل قراءة تلاوة) [٣] .
- وأيما كان المراد بالتلاوة: التعليم أم التذكير أم هما معاً ؟ **فتظل التلاوة مظهراً من مظاهر صيانة وحفظ هذا القرآن الكريم.**

ولعل هذا هو ميزة إيثار التعبير بالمضارع في قوله " يتلو " للإشارة إلي أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته) [٤] . وهو تحقيق لكون القرآن متعبداً

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٢٨٩.
(٢) السابق
(٣) مفردات ألفاظ القرآن ١/١١٧
(٤) التحرير والتنوير ٢/٢٩٠

بتلاوته. فضلاً عن إيثار التعبير بالتلاوة والتي تعني (التتابع والتواصل)[1] . ولعل في ذلك معني من معاني قوله (ﷺ) - وقد سئل عن أفضل الأعمال ؟ فقال : الحال المرتحل. قيل يا رسول الله : وما الحال المرتحل ؟ قال : يضرب من أول القرآن إلى آخره ومن آخره إلى أوله)[2] .

وتستمد التلاوة وأهميتها - كما يرى الفخر الرازي - من وجوه :-

.. (بقاء لفظها علي ألسنة أهل التواتر فيبقي مصونا عن التحريف والتصحيف .

.. أن يكون لفظه ونظمه معجزاً لمحمد (ﷺ) .

.. أن يكون في تلاوته نوع عبادة وطاعة .

.. أن تكون قراءته في الصلوات وسائر العبادات نوع عبادة[3] .

- ومما يُشجع علي كون التلاوة وإقراء القرآن وتعليمه مظهر من مظاهر حفظ هذا الكتاب الحكيم وصيانته أن بعض أهل العلم يرى أن من صور كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى علي قلب سيدنا رسول الله (ﷺ) هو (إلغاء حفظه وتدريسه وتعليمه)[4] .

---

(١) نظم الدرر ٢١٥/١

(٢) سنن الترمذي ـــ القراءات ـــ حديث ٣٢٠٠ ، وسنن الدارمي ـ فضائل القرآن ـ حديث ٣٥٤٠ بزيادة (كلما حل ارتحل)

(٣) تفسير مفاتح الغيب ٢/ ٥٠٧

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣٥٢/٢ عند تفسير قوله تعالي (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه...) البقرة.

- ثم إن استهلال الآية بنعمة "تلاوة الآيات" في (يتلو عليهم آياتك) فيه مجاراة للعرب ومراعاة ما هو في طباعهم وهو(إيثارهم أمر السماع علي أمر العين ، فهي أمة مسموع المدح والثناء من الخلق فكيف بها إذا كان ما دُعيت إليه هو ثناء الحق عليها، وتخليد ذلك الثناء في كلام أنفس وأشرف من كلامها وهو: كلام ربها) [١] .
- ثم إن الاستهلال "بتلاوة الآيات" فيه تدرج وتُلطف بهم علي ما ذهب إليه الحرالى بقوله (فيه إغناء العرب عن إعمال فكرهم في تكسب العلم والحكمة لتستخرج منه أحكاما ، فكان في تلاوة الآيات عليهم إغناؤهم عن الاستدلال بالدلائل) [٢] .
- ويلاحظ كثرة إضافة الآيات في مقام الامتنان علي الناس ببعثة محمد (ﷺ) فيهم تالياً لآيات الله فيهم مُعلماً إياهم الكتاب والحكمة.
- فأحياناً تُضاف الآيات إلي ضمير العظمة (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ...) [٣] .
- وأحياناً تضاف إلي ضمير الخطاب العائد علي ذات العزة والجلال (يتلو عليهم آياتك) [٤] .

---

(١) نظم الدرر ١/ ١٢٥

(٢) السابق.

(٣) البقرة ١٥١

(٤) البقرة١٢٦

- وهذه الإضافة ــ فوق إفادتها معني التشريف والتعظيم ــ فإنها تحمل بين طياتها التأكيد علي ربانية مصدر هذه الآيات وذلك الكتاب، وأنها من عند الله تعالي. وكأني بالخليل عليه السلام تُكشف له حُجب الغيب فيرى ويسمع ما تفعله يهود والنصارى من جحود وكفر بما نُزل علي محمد وهو الحق من ربهم وإشاعة الأباطيل حوله ، فانطلق لسانه بهذا الدعاء " ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ...".وكان ممكناً في غير القرآن أن يقال " يتلو عليهم الآيات ويعلمهم الكتاب والحكمة ..."
- ثم يأتي قوله تعالي " ويعلمهم الكتاب والحكمة " عقب قوله تعالي " يتلو عليهم آياتك" مراد به -والله أعلم-

(يبين لهم وجوه أحكامه: حلاله وحرامه ، ومفروضة ومسنونة ، ومواعظه وأمثاله وترغيبه وترهيبه والحشر والنشر والعقاب والثواب والجنة والنار) [1] . وعلي الجملة (يُعلمهم معاني الكتاب وحقائقه وما فيه من الأحكام) [2] .

- وأرى أن التعبير بـ "الكتاب" هنا أوفي مناسبة من عدة وجوه:-

* مجيء هذه الجملة مبرزة لسمة الكتاب بعد قوله (يتلو عليهم آياتك) المبرزة لسمة القراءة والإقراء ، وهذا ترتيب في غاية الحُسْن لكونه

(١) البحر المحيط ١/٤٣٠

(٢) مفاتيح الغيب ٢ /٦١٠

راعي ترتيبها في الواقع(لأن أول تبليغ الرسالة: تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه ثم العلم تحصل به التزكية) (١)

١. أن تعليم الكتاب: بمعني بيان وجوه أحكامه وإظهار معانيه ، يناسبه أن يكون مكتوبة فذلك أدخل الحجة وأدعي للفهم وأنسب للاستيعاب .

.. وتجدر الإشارة هنا إلي أن التلاوة وأن كانت من الأهمية بمكان -كما أسلفنا- ((فإن الحكمة العظمي والمقصود الأشرف تعليم ما في الكتاب من الدلائل والأحكام فإن الله تعالي وصف القرآن بكونه هدى ونوراً لما فيه من المعاني والحكم والأسرار) (٢) .

" ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وأن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد " (٣) .

- قد يؤثر التعبير بـ "الكتاب" -كما هنا- إذ المقام مقام حديث عن كتمان وإخفاء ما أنزل الله -كما فعل المغضوب عليهم والضالون- حين أخفوا وكتموا ما وجدوه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل من بشارة بمحمد (ﷺ) وحديث عن صفاته .
- فالتعبير بـ "الكتاب" أخدم للسياق وأوفي بالمعني ، لأن كتمانهم "المكتوب" والمنزل من الله بالحق أدخل في التشنيع عليهم والنكارة ،

(١) التحرير والتنوير ٢ / ٢٩٠ .
(٢) مفاتيح الغيب ٢ / ٥٠٧
(٣) البقرة ١٧٤

والمقام يستدعي هذا ويُلح عليه بخلاف ما لو عُبر بغير "الكتاب" كـ (القرآن أو التنزيل)

- ولعل التعبير بـ "الكتاب" هنا قريب من معني قوله تعالي (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلي أجل مسمي...) [1] ، فالكتابة هنا وسيلة حفظ وأمانة لا كتمان وخيانة.
- وثمت مناسبة أخري للتعبير عن القرآن هنا بـ "الكتاب" وهي:- أنهم أخفوا وكتموا نعت سيدنا رسول الله (ﷺ) " المكتوب" عندهم في التوراة والإنجيل ، فكان التعبير عن الوحي المنزل علي من كتموا شأنه بـ "الكتاب" فيه ملائمة وتذكير بكونه مكتوباً عندهم (الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل...) [2] .
- ثم يعود السياق فيُصرح بـ "الكتاب" في خاتمة الآية ، في مقامٍ لا يبعد عن سلفه، فالمقام في صدر الآية مقام كتمان وإخفاء المكتوب النزل من الله بالحق. والمقام هنا مقام" وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد" مقام اختلاف في هذا الكتاب.
- وإيثار التعبير بصفة الكتابة هنا فيها مزيد تقريع وتوبيخ للذين اختلفوا فيه ، فهذا الكتاب المنزل من الله بالحق مما لا ينبغي الاختلاف فيه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) [3] .

---

(١) البقرة ٢٨٢

(٢) الأعراف ١٥٧

(٣) النساء ٨٢

- وقد ذهب المفسرون في بيان الاختلاف في الكتاب هنا غير مذهب ، أوجزها في الآتي :-
- إذا كان المراد بـ " الذين اختلفوا فيه" هم اليهود والنصارى فالمراد بالاختلاف هنا هو اختلافهم(مع الذين آمنوا منهم أو اختلفوا فيما يصفون به القرآن من تكذيب به كله أو تكذيب ما لا يوافق هواهم وتصديق ما يؤيد كتبهم) [1] .
- وقد يُراد بـ "الذين اختلفوا فيه" المشركون " ويُراد باختلافهم في الكتاب هنا(قول بعضهم إنه سحر وبعضهم إنه شعر وبعضهم إنه أساطير الأولين) [2] ، ويأتي قوله تعالي" وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد " بمنزلة التذييل من الجملة السابقة ، وهو من التذييل الجاري مجري المثل بمعني أنه يمكن استغناؤه واستقلاله عما سبقه والمعني مستقيم.
- وعُبر بـ " الكتاب " ثانية في قوله تعالي : " وإن الذين اختلفوا في الكتاب " بعد سبق التعبير به في صدر الآية من باب وضع المظهر موضوع المضمر وذلك : (ليناسب استقلال جملة التذييل بذاتها) [3]

(١) التحرير والتنوير ٢ / ٣٩٦

(٢) روح المعاني ٤٣/٢ ، وانظر التحرير والتنوير ١ / ٤٩٨. وفتح القدير ١/ ١٨٨

(٣) التحرير والتنوير ١ / ٤٩٧

- **وفي التعبير بالظاهر موضع المضمر هنا إيحـــاء بما خلف العبارة من إنكار وغضب شديد وتعجب بليغ من اختلافهم فيه، وهو مما لا ينبغي أن يُختلف فيه. فصرح بالمُخْتلف فيه "الكتاب" تقريرا وتعظيماً وصُرح بجزاء الاختلاف فيه "لفي شقاق بعيد" زجراً وتخويفاً.**
- **وتبقي لكلمة "الكتاب" خصوصيتها وقدرة علي حشد الكثير من المعـاني والخواطر لا ينهض المضمر بشيء منها.**

وذلك غير مقصور علي لفظة " الكتاب " إنما هو منسحب علي الكلمات التي لها في سياق الحديث مكان خاص .

ولعل هذا مما يُشير إليه قول الإمام عبد القاهر – في معرض تعليقـه علي بيت النابغة :-

نفس عصام سودت عصاماً ∴ وعلمته الكـــــــرّ والإقداما

(لا يخفي علي منْ له ذوق حُسْنُ هذا الإظهار وأن له موقعاً في النفس وباعثاً للأريحية) [1] .

نزل عليك الكتاب بالحق...) آل عمران ٣

- **قد يؤثر التعبير باسم "الكتاب" كما هنا ، وذلك لمناسبته للسياق الـواردة فيه السورة بأكملها وهو سياق محاجة ومجادلة وفد نـصارى نجـران للنبي (ﷺ) .**
- **فالتعبير بـ "الكتاب" هنا أبلغ في الدلالة علي صدق القرآن وأنه من عند الله(لأنه لو كان من عند غير الله لم يكن موافقاً لسائر الكتب ، لأنه (ﷺ)**

(١) دلائل الإعجاز ٢٤٣

كان أمياً لم يخلط بأحد من العلماء ولا تتلمذ لأحد ولا قرأ علي أحد شيئاً ، والمفترى إذا كان هكذا امتنع أن يسلم عن الكذب والتحريف ، فلما يكن كذلك ثبت أنه إنما عرف هذا القصص بوحي الله تعالي) [1] .

- ثم إن التعبير بـ " الكتاب " في مثل هذا السياق فيه مجاراة للخصم محاولة للوصول بهم إلى الإذعان والإيمان بهذا القرآن الذي جادلوا فيه ، و بيان ذلك :- إن التوراة والإنجيل التي هي هدى للناس هي كتب مُنزلة من الله ، وكذلك هذا المُنزل على محمد كتاب مُنزل بالحق فإما الإيمان بهذه الكتب جميعا وإما الكفر بها جميعا. أما الإيمان ببعضها " التوراة والإنجيل " والكفر ببعضها " القرآن " فلا ريب أنه ضلال وجهالة ، ففي التعبير بـ " الكتاب " محاولة حمل المجادلين على الإذعان للحق والتسليم به.
- فضلا عما في التعبير بـ " الكتاب " من مناسبة للحديث عن التوراة والإنجيل بذكر صفة مشتركة بينها جميعا وهى "الكتابة" دون التعبير بـ " القرآن " مثلا ، إذ أن صفة القراءة والإقراء مما يختص به القرآن دون الكتب الأخرى. والبحث عن المشترك في مقام الجدال والمحاجة – كما هنا – أمر محمود مرغوب، للانطلاق منه إلى إقرار الحق والتسليم به.
- ومما يقوى عندي هذا الفهم أن السورة هنا ركزت في أكثر من موضع على المشترك بين المختلفين والمجادلين ، ومن أدلة ذلك :-

(١) مفاتيح الغيب ٢٩٨/٤

- عدم وصف القرآن بـ "الهدى" هنا - بخلاف وصفه صدر سورة البقرة - ووصف التوراة والإنجيل بالهدى في قوله " وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس" ويذكر الرازي لطيفة في هذا بقوله :

(وصف القرآن في أول سورة البقرة بأنه "هدى للمتقين " فلم لم يصفه ها هنا به ؟ ذلك لأنا ذكرنا في سورة البقرة أنه إنما قال " هدى للمتقين " ، لأنهم هم المنتفعون به ، فصار من الوجه هدي لهم لا لغيرهم .

أما ها هنا فالمناظرة كانت مع النصارى ، وهم لا يهتدون بالقرآن فلا جرم لم يقل ها هنا في القرآن أنه هدي بل قال: إنه حق في نفسه سواء قبلوه أو لم يقبلوه ، وأما التوراة والإنجيل فهم يعتقدون في صحتها ويدعون بأنا إنما نتقول في ديننا عليها فلا جرم وصفهما الله تعالي لأجل هذا التأويل بأنهما هدي) [1] .

- فانظر -نضر الله وجهك- كيف حرص الأسلوب علي الانطلاق إلي إثبات صدق وربانية القرآن من الاهتمام بالمشترك بيننا وبينهم ، فتلاشي السياق البدء معهم بالمختلف فيه عندهم ، ضمانا لإكمال الحوار والإقناع بغية الوصول إلي كلمة سواء .
- كما يمكن القول إن التعبير بـ " الكتاب " في صدر سورة آل عمران فيه مشابهة ومماثلة للتعبير بـ " الكتاب " في صدر سورة البقرة من حيث :- إن المقصود في صدر البقرة كان بيان أن هذا الكتاب هدي للمتقين ،

(١) السابق

والمقصد هنا هو (بيان حال هذا الكتاب الذي هو هـدي للمتقـين) [١] .

وهذا يمثل مظهراً من مظاهر التناسب بين السورتين ، وهو باب ثر من أبواب البلاغة يكتنف المزيد من اللطائف والأسرار ، وقد احتفـى غيـر واحد من علماء البلاغة، علي رأسهم البقاعى – أجزل الله مثوبته- .

- وفي قولـه " نزل عليك الكتاب بالحق " احتشدت البراهين المؤكدة علي ربانية مصدر هذا الكتاب " القرآن " وعلي تقرير الغرض المسوق لـه الكلام وهو(تحقيق إنزاله القرآن والكتابين من قبله) [٢] .
- ففي التعبير بـ " نزل" ما يفيد أن هذا الكتاب مُنزل ومـوحي ولـيس مُـفتر -كما تقول المتقولون- ، وذلك لأن التنزيل(فعل مختص بـالله تعالي ، إذ الإنزال يُرادف الوحي ، ولا يكون إلا من الله بخلاف ما لو قال "هو الذي أتاك الكتاب") [٣] .
- ولـهذا التعبير نظائر عديدة ، في بيان القرآن وبيان النبوة منها الأول (قل إنما أنا بشر يوحي إلي أنما إلـهكم إله واحد) [٤] ، وقوله (واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك) [٥] ، (قل أوحي إلي أنه استمع ...) [٦] .

---

(١) نظـم الـدرر ١٠/٢

(٢) التحرير والتنوير ٧٠٨/٢ – عند تفسير آية ٧ من آل عمران

(٣) السابق.

(٤) الكهف ١١١

(٥) الكهف ٢٧

(٦) الجن ١

- ومن بيان النبوة (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدا أن لا إله إلا الله...) [1] .
- ثم يُقوى هذا مجيء التعدية بـ "علي" في قوله "نزل عليك الكتاب" لتفيد(الاستعلاء ، كأن الكتاب تجلله وتغشاه (ﷺ) [2] .
- وقد اختلفوا في المراد من قوله "بالحق" هنا اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، ومما أستريح إليه من جملة ما أفاض فيه علماؤنا أن المراد "بالحق" يعني : نزل عليك الكتاب (بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل) [3] .

"ألم تر إلي الذين أتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلي كتاب الله " ..) [4]

وقد يؤثر التعبير بـ "الكتاب" في مقام ذم أهل الكتاب وتوبيخهم والإنكار عليهم -كما هنا- ، فالآية واردة في سياق التشنيع علي أهل الكتاب وذمهم والتشهير بموقفهم المتناقض غاية التناقض ، وذلك حين يدعون إلي كتاب الله ليحكم بينهم فيتولوا معرضين ، رغم كونهم قد أوتوا نصيباً من الكتاب.

وقد ذهب جُل المفسرين إلي أن "الكتاب" -المُعرف بالألف واللام- مراد به التوراة[1].

---

(١) البخاري - الإيمان - فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم .

(٢) البحر المحيط ٣/٧

(٣) جامع البيان ٣/١٤٢ وانظر البحر المحيط ٣/ ٧

(٤) آل عمران ٢٣

- بينما ذهبوا في المراد من "كتاب الله" -المعرف بالإضافة- غير مذهب ،فمن قائل إن المراد به(التوراة)-أيضاً- وغُير اللفظ تفنناً وتنويهاً بالمدعو إليه[٢] . وحجتهم في هذا مناسبة نزول الآية وهي:

(أنه (ﷺ) دخل مدرسة اليهود ، وكان فيهم جماعة منهم فدعاهم إلي الإسلام ، فقالوا: علي أي دين أنت؟ فقال : علي ملة إبراهيم. فقالوا : إن إبراهيم كان يهوديا ، فقال (ﷺ) : هلموا إلي التوراة ، فأبوا ذلك ، فأنزل الله تعالي هذه الآية) [٣] .

- بينما يذهب الطبري في الاحتجاج مذهباً أخر فيقول : (إن ذلك الكتاب هو التوراة ، لأنهم كانوا بالقرآن مُكذبين ، وبالتوراة بزعمهم مصدقين فكانت الحُجة عليهم بتكذيبهم بما هم به في زعمهم مقرون أبلغ وللعذر أقطع) [٤] .

فيري الطبري -في ضوء ما سبق- أن دعوتهم إلي التوراة ليحكم بينهم ثم توليهم معرضين فيه مزيد شناعة وأدخل في النكارة عليهم ، إذ لا اختلاف بينهم علي صحة التوراة.

- بينما يذهب آخرون إلي أن **المراد بـ "كتاب الله" هنا هو "القرآن الكريم"**، ومن هؤلاء: ابن عباس، الحسن، قتادة: وحجتهم

---

(١) انظر: الكشاف ١٥٩/٢ ، جامع البيان ٣ /٢٥٩ ، مفاتيح الغيب٣٧٢/٤ ، نظم الدرر ٤٦/٢، التحرير والتنوير ٢/ ٧٣٦

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢ /٧٣٦

(٣) مفاتيح الغيب ٤ /٣٧٢

(٤) جامع البيان ٢٦٠/٣

في هذا :أن **كون المراد به القرآن هنا أخدم للسياق وأنهض بالمعنى** وذلك لأنه (دُعيت طائفة منهم إلي رسول الله ليحكم بينهم بالحق فأبت)[1] .

- ثم يضيف الطاهر بن عاشور تعليلاً يُقوي كون المراد "بكتاب الله" هو "القرآن" وهو تغيير الأسلوب (وكتاب الله : القرآن ، فهو غير الكتاب المراد في قوله "من الكتاب" كما ينبئ به تغيير الأسلوب)[2] .

*** **شُبهة ورد** ***

قد يعترض –علي القول القائل بأن المراد بكتاب الله هنا هو قرآن– بما :

كيف دُعوا إلي حكم كتاب لا يؤمنون به ابتداءً ؟

ويُردّ علي ذلك:– بأنهم (إنما دُعوا إليه بعد قيام الحجج الدالة علي أنه كتاب

(١) السابق

(٢) التحرير والتنوير٢/ ٧٣٦

(٣) مفاتيح الغيب٤ / ٣٧٣

وأرى ـــ والله أعلم ـــ

- أنه إذا ترجح القول بأن المراد بكتاب الله هو "القرآن" فإن التعبير بـ "الكتاب" هنا في حاق موضعه ، ففي التعبير به هنا مماثلة للتعبير ب "الكتاب" في صدر الآية ، وفي هذا من التسجيل عليهم ما فيه ، لأن هذا الكتاب الذي يُدعون إلي التحاكم إليه من مشكاة "الكتاب" الذي أوتوا نصيباً منه ، فأني لهم أن يتولوا عنه وهم مُعرضون؟
- ثم إن إظهار لفظ الجلالة "كتاب الله" فيه(إشارة إلي عظيم اجترائهم بتوليهم عمن له الإحاطة الكاملة) [(١)] .
- وأري -إضافة لما سبق- أن التعبير بغير "الكتاب" هنا يُفوت ذكر اسم الجلالة بما يكتنزه من نكات بلاغية ما أحوج المقام إليها !

من سمات التعبير عن القرآن بـ "القرآن"

- لم يرد التعبير عن الكتاب المنزل علي سيدنا رسول الله (ﷺ) بلفظة "القرآن" -في الزهراوين- إلا مرة واحدة ، وذلك قوله تعالي : (**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن**) [(٢)] .
- ولفظة "القرآن" مصدر قرأ – مثل الغُفران ، الشكران ، البهتان.
- ثم صار علماً (علي المُوحي به إلى سيدنا رسول الله صلي الله عليه وسلم المجموع بين دفتي المصحف مفتتحاً بالفاتحة مختتماً بالناس) [(١)] ، وعليه فلا يقال قرآن لسواه.

---

(١) نظم الدرر ٢ /٤٧

(٢) البقـرة١٨٧

- **وتدور مادة اللفظة حول معان عدة منها**:-
- "**الجمع**" من قولهم "لم تقرأ جنينا" أي لم تجمع في رحمها ولداً ، ومنه قُرء المرأة وذلك لاجتماع الدم في رحمها ، وقولهم: قرنت بين الأشياء ، اذا جمعت بينها.
- **وسُمي القرآن "قرآناً"** (لاجتماع سوره واقترانها بعضها ببعض ، وكذا آياته وحروفه) [٢] أو(لأن ما فيه من الحكم والشرائع مقترن بعضها ببعض، أم لأن ما فيه من الدلائل الدالة علي كونه من عند الله مقترن بعضها ببعض) [٣] .
- وقيل سُمي القرآن قرآنا (لكونه جامعاً لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار تعالي بقوله "وتفصيل كل شئ " وقوله "تبياناً لكل شيء "). [٤] .
- وهذا الكلام قريب من قول سفيان بن عيينة:(سُمي القرآن قرآنا لأن الحروف جُمعت فصارت كلمات والكلمات جُمعت فصارت آيات والآيات جُمعت فصارت سورا ، والسور جُمعت فصارت قرآنا ، ثم جُمع فيه علوم الآخرين) [٥] وهو مظهر من مظاهر الهيمنة التي لهذا الكتاب

---

(١) مفردات الراغب صـ٤٠٠

(٢) مفاتيح الغيب ٣/٦٥ ، التحرير والتنوير ٣/٣٠

(٣) مفاتيح الغيب ٣ /٦٥

(٤) مفردات الراغب صـ٤٠٠

(٥) مفاتيح الغيب ٣/٦٦

علي غيره من الكتب السابقة [1] ، وعليه فهيمنة هذا الكتاب المنزل علي قلب سيدنا رسول الله (ﷺ) وجمعه لثمرة الكتب السابقة ، وكونه الذي يستأهل أن يُسمي "الكتاب" في مقابلة غيره من الكتب. كل ذلك اجتمع عليه وأفاده غير لفظ من ألفاظ هذا الوحي المنزل علي سيدنا رسول الله.

- أفاد ذلك لفظة "الكتاب" – وقد سبق بيان هذا بما لا حاجة لتكرارها هنا– وهو ما يُفاد كذلك ضوء لفظة "القرآن" فجلَّ وتبارك الذي نزل هذا القرآن–.
- ويري بعض أهل العلم أن القرآن سُمي قرآنا: (لأن القارئ يكتبه ، وعند القراءة كأنه يلقيه من فيه ، أخذاً من قول العرب: ما قرأت الناقة سلى قط ، أي ما رمتْ بولد وما أسقطت ولداً قط وما طرحت)[2]
- **والذي أميل إليه** .. أن القرآن مصدر الفعل "قرأ" بمعني حرك لسانه بالكلام ، وذلك لأن أول ما نزل منه هو "اقرأ باسم ربك" فهذه التسمية أولي،لأنها أول كلمة نزلت من القرآن ، فناسب أن تكون عنوانه والعَلَم عليه.
- وأري أن التعبير بلفظة " القرآن " هنا من تمام المناسبة وكمال الملائمة وذلك لكون الآية تتحدث عن بدايات نزول هذا الوحي المطهر، ففي التعبير بالقرآن هنا إشارة وملاحظة لجانب نزوله متفرقاً

(١) سبق تفصيله صدر هذا البحث

(٢) مفاتيح الغيب ٣/٢٥٥

" منجما " وقد بدأ نزوله متفرقاً في شهر رمضان علي مدار ثلاث وعشرين سنة . بخلاف التعبير باسم " الكتاب " مثلاً ففيه ملاحظة لجانب نزوله جملة واحدة .

- وشممت رائحة ذلك من كلام الزمخشري عند تفسير قوله تعالي (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل) [١] ، فقد قال رحمه الله : (الكتاب: التوراة ، آتاه إياه جملة واحدة) [٢] ، فقد كان ممكنا: ولقد آتينا موسى التوراة لكن لفظة "الكتاب" أشعرت بالنزول دفعة واحدة .
- كما أن من المعاني التي تفيدها مادة " قرأ " هي التلاوة ، ودل عليها قوله تعالي (فإذا قرأنه فاتبع قرآنه) [٣] . أي : (إذا تلوناه عليك فاتبع تلاوته) [٤] .
- وعلي هذا أرى أن مناسبة التعبير بلفظة "القرآن" هنا آتيه من وجه آخر - غير ما سبق- وهو أن أول ما نزل من القرآن من آيات فيه تركيز واضح علي صفة القراءة والإقراء[٥] .

---

(١) البقرة ٨٧

(٢) الكشاف١ /١٨٢ .

(٣) القيامة ١٨

(٤) مفاتيح الغيب ٣٣٣/١

(٥) على نحو ما سبق بيانه صدر هذا البحث

*** اعتراض ورد ***

- **وقد يعترض معترض بورود قوله تعالي (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) – في سورة البقرة– وهي آخر ما نزل من القرآن ، وكان يُفترض – في ضوء ما سبق– أن تُؤثر لفظة "الكتاب" أو ...**

ويمكن الرد علي هذا بأن الآية الكريمة – محل الاعتراض– وإن نزلت في آخر ما نزلت من السور غير أنها تتحدث عن أول نزول القرآن و أنه كان في شهر رمضان وذلك يدعم ما ذهبتُ إليه ولا يعارضه.

- **ثم إن التعبير بلفظة "القرآن" في جانب شهر رمضان في تمام الملائمة لكونه شهر "القراءة والإقراء" ، فكان (ﷺ) يلْقي جبريل فيه فيعارضه القرآن حتى كان العام الذي قُبض فيه (ﷺ) فلقي جبريل وعارضه القرآن مرتين.**
- **وصارت سنة السلف الصالح من بعده (ﷺ) تجري علي ختم القرآن وتدبره المرة تلو المرة تأسياً بمن نزل القرآن علي قلبه (ﷺ) ، والمقام يضيق عن سرد شواهد علي ذلك.**
- **وإذا صح هذا الفهم فإن ثمت علاقة وتناغم بين التعبير بـ "القرآن" مع التعبير بـ "الشهر" هنا ، من حيث كون الأصل في "الشهر" هو الدوران والتعاقب ، وكذا السمة الغالبة في "القرآن" التعاقب وتكرار تلاوته ، فكلما انتهي القارئ إلي خاتمة القرآن ثني بفاتحته مبتدئاً ختمة جديدة. ممتثلاً قوله (ﷺ) : (يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق**

ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها)[1] .

- ولاحظ جمال التعبير بلفظة "صاحب القرآن" دون "قارئ" بما تفيده من طول ملازمة منه وتعهد لهذا القرآن، ولا يكون ذلك إلا بدوام التلاوة والنظر فيه.
- وهو تحقيق لمعني الأفضلية في حديث ابن عباس (ﷺ) : (أن رجلاً قال : يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال : الحال المرتحل . قال يا رسول الله : وما الحال المرتحل ؟ قال : يضرب من أول القرآن إلي آخره ومن آخره إلي أوله)[2] ، ورواية الدارمي بزيادة :- (كلما حل ارتحل).
- كما أري أن التعبير بلفظة "القرآن" هنا فيها دفع توهم خلاف المراد ، فلو عُبر بـ "الكتاب" مثلاً فقد يُتوهم أن المراد كتاب آخر – غير القرآن- من الكتب السماوية ، والعناية هنا قائمة بذكر نزول القرآن – لا غيره- في شهر رمضان، لا سيما أن الآثار الواردة تواترت علي أن الكتب السماوية الأخرى نزلت أيضاً في رمضان[3] .

(١) سنن أبي داود – الوتر- حديث ١٤٦٦ ، سنن الترمذي – فضائل القرآن- حديث ٣١٦٢

(٢) سنن الترمذي – القراءات- حديث ٣٢٠٠ ، سنن الدارمي – فضائل القرآن- حديث ٣٥٤٠.

(٣) مفاتيح الغيب ٣٥٢/٣

من أسرار التعبير عن القرآن بالموصولية

ورد التعبير عن القرآن بـ "بالموصولية" في الزهراوين في أكثر من موضع وهي :-

م	الشاهد	الموضع
١	وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ	البقرة ٤ ، ٥
٢	وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ	البقرة٢٣
٣	إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ	البقرة ١٥٩
٤	إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ	البقرة ١٧٤
٥	وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ	آل عمران ١٩٩

* ففي الآية الأولى " وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ " جاء التعبير عن القرآن بالصلة ، والسر في ذلك – والله أعلم – هو التوافق والتجانس في الصياغة مع الجملة السابقة " الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ".

* كما أن جملة الصلة – هنا – أشعرت بربانية مصدر هذا الكتاب ، فليس من افتراء محمد ولا من تلقاء نفسه – حاشاه ذلك (ﷺ) – وذلك لأن التنزيل – كما سبقت الإشارة – فعل مختص بالله تعالى : كالوحي..

* وإذا تأكد ذلك الفهم ففي الآية تشنيع على أهل الكتاب وإنكار ، لأنهم أمنوا ببعض ما انزل الله وكفروا ببعض ما أنزل الله ، مع كون مصدر تلك الكتب جميعا واحد!

* كما في التعبير بالموصولية هنا بيان لعظمة وشرف وقدسية هذا المنَّزل ، حيث اكتسب شرفه وقدسيته من جلال وقدسية من أنزله.

* فكما أن شرف المتعلم بحسب علاء وشرف من علمه ، فكذلك شرف وجلال المُنـــزَّل من جلال من أنزله.

وعلى صحة هذا القول : ففي التعبير بالصلة هنا نوع من تربية المهابة وإدخال الروعة .

فضلا عما في التعبير بالصلة هنا من الإيجاز ، حيث إن الصلة تجمعهم.

* ويجري على هذا النسق – عتابا وتوبيخا وتنكيرا لبني إسرائيل – قوله تعالى (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ) البقرة٤١

فقد كان متوقعا مسارعة يهود إلى الإيمان بما أُنزل على محمد (ﷺ) مصدقا لما معهم من الكتب ، فقد بشرت به كتبهم وأخبرت به رسلهم (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) أي : على مشركي العرب (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) لكونهم كفروا به واشتروا به ثمنا قليلا ، غافلين عن أمر جد خطير ، وهو أن إيمانهم بما أنزل على محمد (ﷺ) هو إيمان بما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام ، وأن كفرهم به هو كفر بما أُنزل على موسى وعيسى عليهما السلام.

*ــ لاسيما وقد أُخذ الميثاق الإلهي الأزلي قد أُخذ على النبيين من قبــل ، أن يؤمن بعضهم ببعض ، وأن ينصر بعضهم بعضا.

*ــ فيلاحظ أن التعبير بالصلة هنا ثم وصف القرآن بكونه مصدقا لما معهم ، أدخل في إدانة القوم ، والتسجيل عليهم والإنكار عليهم سوء صنيعهم.

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

قد يعبر عن القرآن بالصلة تعظيما لشأنه وبيانه لجلال منزلــه ــ ثــم لتوبيخ وإنكار فعل كاتميه ــ كما هنا .

* وأرى أن تمام المناسبة في التعبير بالموصولية هنا آت من إفادتهــا تفخــيم وتعظيم هذا المنزل على قلب سيدنا المصطفى وذلك ما نجده في " ما أنزلنــا " على شاكلة " فغشيهم من اليــم ما غشيهم" طه ٧٨

* ثم زيد في تفخيم وتقرير علو شأن هذا القرآن بنسبة إنزالــه إلــى ضــمير العظمة " أنزلنا " ، وهو مع هذا التفخيم وعلو الشأن فيه تسجيل وتشنيع علــى الكاتمين له .

إذ كيف تجرؤا وكتموا ما أنزله رب العزة جل في علاه ؟!

وعلى حد قول البقاعي فإن (أعظم ما كتموه أمر هذا الكتاب الذي هو الهدى المفتتح به السورة)[1] .

ثم إن وصف هذا المنزل بــ "البينات" و " الهدى "وذِكْــر القيد " من بعد ما بيناه للناس " فيه مزيد تبكيت لهم ، وأدخل في تقبيح فعلهم ، حين كتموا عن أقوامهم وأخفوا البينات الواضحات على صدق نبوة محمد (ﷺ) .

---

(١) نظم الدرر ٢٩٠/١ ويقرر البقاعي أن المراد بجملة الصلة فى " ما أنزلنا من البينــات " هنا هــو القرآن الكريم ، وقد ذهب إلى ذلك الألوسي كذلك .

* ومن سمات هذه البينات أنها تحمل في طياتها أسباب الهداية إلى طريق الله المستقيم ، ورغم هذا كله فقد تملكتهم الجُرأة ، وطُمست أعينهم فكتموا ما أنزل الله وبينه (وما بينه الله (ﷺ) في الكتاب لا يحل كتمه) [1] .

وعليه فقد احتشدت في الآية أساليب متنوعة لإفادة المبالغة في النكارة عليهم وكتمانهم ما أُنزل من ربهم :ـ

(أ) إسناد الإنزال إلى ضمير العظمة.

(ب) التعبير عن المنزل من عند الله ـ الذي كتموه ونبذوه ـ بالبينات والهدى.

(ج) ذكر القيد " من بعد ما بيناه " وذلك (لزيادة التفظيع لحال الكتمان ، وذلك أنهم كتموا البينات والهدى مع انتفاء العُذر في ذلك لأنهم لو كتموا ما لم يبين لهم لكان لهم بعض العُذر أن يقولوا : كتمناه : لعدم اتضاح معناه فكيف وهو قد بُين ووضح في التوراة) [2] .

* بينما جاءت المبالغة في الإنكار عليهم في الآية الأخرى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ)البقرة١٧٤

من طرق أخرى وهي :ـ

* إسناد الإنزال إلى اسم الجلالة الأعظم مباشرة، وذلك لتربية المهابة ولكونه أدخل في الروعة.

* ثم من إيثار التعبير بـ الكتاب " أي : المكتوب دون غيره من مثل " التنزيل ، القرآن ، الوحي ... لأن الكتابة أدخل في الحجة عليهم بأن مثله مما لا ينبغي كتمه.

---

(١) السابق

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٤٦٤

* ثم إن التعبير بـــ الكتاب " هنا في تمام المناسبة للتعبير باسم الله الأعظـــم ، المحيط بكل الأسماء الجامع لكل الخصائص ، وكذا الكتاب جامع لكل الثمرات والعلوم مشتمل على كل الأحكام .

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ) آل عمران

اختلف المفسرون في بيان مناسبة نزول هذه الآية الكريمة ، فمن قائـــل إنها نزلت في شأن النجاشي حين نعاه جبريل إلى سيدنا رســـول الله (ﷺ) ، فقام النبي ومن معه فصلى عليه صلاة الغائب .

* فقال بعض الحانقين والمتربصين : انظروا كيف يصلى علـــى علـــج مـــن النصارى لم يؤمن بـــه ! فنزلت الآية[1] .

* ومن قائل إنها نزلت في عبد الله بن سلام ومن على شاكلته ، ومن قائل إنها عامة تشمل كل مسلمة أهل الكتاب.

* وقد أفاد التعبير عن القرآن بالموصولية هنا " وما أنزل إليكم " عدة نكات : –

* أن التعبير بالموصولية جاء متمما للغرض وجاريا في النسق الذي جاء فيـــه التعبير باسم الجلالة الأعظم "... لمن يؤمن بالله " والمفيد للتعظيم واستحـــضار الجلال والصلة تنهض بهذا التعظيم والتفخيم.

* ثم إن إيمانهم بما أُنزل على محمد وبما أنزل على من سبقه من الرسل فيـــه تذكير وتقرير ببيان محل هذه الكتب ، وأنها من عند اللـــه الذي آمنوا به فـــي صدر الآية.

(١) انظر : تفسير الطبري ٤/ ٢٣٧ و العلج هو : الرجل من كفار العجم ـــ غير العرب.

* فالصلة هنا ركزت على أن إيمانهم بالقرآن وبالكتب السماوية منطلق ومرتكز على كونها جميعا من عند الله ، بخلاف ما لو أوثر تعبير آخر نحو " لمن يؤمن بالله وبالقرآن وبالتوراة وبالإنجيل ... " .

وهو الأمر الذي لو استشعره وتذكره غيرهم من أهل الكتاب من الذين حرفوا وكتموا واشتروا به ثمنا قليلا ربما لرجعوا عن غيهم ، وأثابوا إلى رشدهم .

وعليه فالتعبير بالصلة هنا فيه جانب تعريض بالصنف الآخر من أهل الكتاب.

* فضلا عن كون إيمانهم بالمنزل على محمد وما أُنزل إليهم هو دليل صدق على إيمانهم بالله أولا.

* كما يمكن أن يكون السر في التعبير بالموصولية هنا هو تقرير إنزاله تعالى لهذا القرآن ، وهذه سمة واضحة في التعبير حين يُجمع بين القرآن والكتب السماوية في العبارة، وذلك لأن الصلة تجمعهم ، ثم للتذكير باتحاد مصدرها جميعا.

ومن الشواهد على ذلك:.

* قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) البقرة ٤

* وقوله : (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ...) البقرة ١٣٦

* وقوله تعالى (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا)البقرة ١٣٧

كما ألمح جانبا من جوانب الاعتلاق بين سورتي البقرة وآل عمران – في التعبير بالصلة هنا – وهو أن التعبير بالصلة في آخر آل عمران هنا " وما أُنزل إليكم ..." ناظر إلى التعبير بالصلة في صدر سورة البقرة هناك "

والذين يؤمنون بما أُنـــزل " خاصة إذا تذكرنا أن المراد بهم فـــي الموضـــعين واحـــد وهم " مؤمنو أهل الكتاب " على ما ذهب إليه جُـــل المفسرين .

وقد يكون في التعبير بالموصولية – هنا – إيماء إلى وجه بناء الخبـــر " لهـــم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب " .

* وفي هذا الإيماء تحفيز وتشجيع لغيرهم من أهل الكتاب أن ينـــسجوا علـــى منوالهم ويقتفوا أثرهم ، لاسيما الذين كذبوا هذا الكتاب وأخفوه واشتروا به ثمنا قليلا.

من أسرار التعبير عن القرآن بالآيات

من شواهد هذا المبحث :

م	الشاهد	الموضع
١	وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ	البقرة٩٩
٢	كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُـــزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ	البقرة١٥١
٣	تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ	البقرة٢٥٢
٤	تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وما الله يريـــد ظلمـــا للعالمين	آل عمران١٠٨
٥	ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ	آل عمران٥٨
٦	وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ	آل عمران ١٠١

* الآيات جمع آية وهي العلامة ، وسميت الآية من القرآن آية لأنها جماعة من حروف القرآن ، وقيل لأنها كالعلامة التي يُفضى منها إلى غيرهـــا ، كـــأعلام الطريق المنصوبة للهداية .

* كما تطلق الآية على العبرة كما في قوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ) يوسف ٧ .

* ويذهب الطاهر بن عاشور إلى أن الجملة من جمل القرآن سميت آية (لدلالتها على صدق الرسول بمجموع ما فيه من دلالة صدور مثلها من أميّ لا يقرأ ولا يكتب ، وما نُسجت عليه من نظم أعجز الناس عن الإتيان بمثله، ولما اشتملت عليه من الدلالة القاطعة على توحيد الله وكمال صفاته دلالة لم تترك مسلكا للضلال في عقائد الأمة) [١] .

* وأرى أن التعبير بالآيات عن القرآن قد ورد في سياق ذكر آيات تحمل في جنباتها ما يثبت صدق رسالة سيدنا محمد (ﷺ) ويقرر نبوته ، وذلك بقصها أخبارا لا يعلمها إلا قارئ من كتاب أو موحى إليه.

* وما دام الجميع شهودا على أن رسول الله (ﷺ) لا يقرأ ولا يكتب ، فبقي ذلك دليلا على أنه الوحي إليه (ﷺ) .

* انظر مثلا إلى قوله تعالى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين)تجده جاء إثر الحديث عن الألوف الذين خرجوا من ديارهم وإماتتهم وإحيائهم وتولي طالوت الملك وإنزال التابوت من السماء ، ثم دحر الجبابرة على يد داود بإذن الله ، وتفاصيل ما جرى في هذا الزمن السحيق مما لم يكن يعلمه سيدنا رسول الله (ﷺ) ولا قومه من قبل هذا .

* يقوي ذلك وصف الآيات بالحق والذي من معانيه هنا (اليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب، لأنه في كتبهم كذلك من غير تفاوت أصلا) [٢] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٤١٤

(٢) مفاتيح الغيب ٤/١٦٤

* ثم ارجع البصر في قوله تعالى (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) آل عمران ٥٨ تجده جاء إثر الحديث عن اصطفاء الله آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران... ثم نَذْر امرأت عمران ما في بطنها لخدمة بيت المقدس ، ثم هبة الله عبده زكريا ابنه يحي ، ثم سرد قصة المسيح بن مريم عليهما السلام ، منذ بُشرت به أمه حتى رفعه الله إليه إلى السماوات العلا ، وما جرى بين ولادته ورفعه من أحداث . مما لم يكن يعلمه إلا موحى إليه وهو محمد (ﷺ)

*ـ وفي هذا تمام المناسبة للسياق العام التي جرت فيه الآيات ، أعني به :

محاجة نصارى نجران لرسول الله (ﷺ) ، ونسبتهم عيسى بن مريم إلى غير نسبه وقولهم عليه غير الحق.

وتأمل – كذلك – قوله تعالى : " تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين" ومجيئه بعد ما سلف من نبأ عيسى (عليه السلام) " إن مثل عيسى (عليه السلام) عند الله كمثل آدم ..." وانتهاء بالحديث عن (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) وكلها كم أسلفنا غيبيات لا يحفظها إلا الوحي ولا يوحى بها إلا إلى رسول .

* ومما تضافر على تقرير أمر بعثته (ﷺ) وإثبات صدق رسالته ـ فوق ما سبق ـ الالتفات في نسبة التلاوة إلى ضمير العظمة " تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) و (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) وفيه ما لا يخفى من مزيد العناية بالتلاوة من جانب ، ومزيد تشريف وتكريم للمتلو عليه من جانب آخر،حيث تولى التلاوة رب العالمين جلت صفاته،وإنما كانت التلاوة ـ حقيقة ـ على لسان أمين الوحي : جبريل (عليه السلام) .

وفي التعبير بالتلاوة تقرير للغرض المسوق له الكلام وهو : إثبات صدق سيدنا محمد (ﷺ) ، لأن المراد بالتلاوة كما يقول الطاهر بن

عاشور(اسم لحكاية كلام مراد تبليغه بلفظه ... والقراءة تختص بحكاية كلام مكتوب) [1] .

فالتعبير بالتلاوة في هذا السياق فيه تركيز على كون المتلو ملفوظا وليس مكتوبا ، وهذا من شأنه قطع الطريق على كل مُفتر ومعترض قائل بما قاله أسلافه (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا) الفرقان

* فإيثار التعبير بالتلاوة هنا نفي أن يكون أمام النبي (ﷺ) كتاب يأخذ منه.

* ويتآزر مع التعبير بالتلاوة في تأكيد رسالته (ﷺ) والتعريض بمنكري ذلك التوكيدُ في قوله تعالى (وإنك لمن المرسلين) فقد جئ بالتوكيد (تنويها بشأنه (ﷺ) ، وتثبيتا لقلبه وتعريضا بالمنكرين رسالته ، وجئ بـ " المرسلين " دون أن يقول " وإنك لرسول الله "للرد على المنكرين بتذكيرهم أنه ما كان بدعا من الرسل ، وأنه أرسله كما أرسل من قبله ، وليس في حالة ما ينقص عن أحوالهم) [2] .

* وقد يُعبر بالآيات عن القرآن لمناسبة السياق والملابسات الوارد فيه الكلام ، ثم للربط على قلب سيدنا رسول الله (ﷺ) من جانب آخر كما في قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)

فقد ذكروا في مناسبة نزولها أن الأعداء من اليهود قالوا لسيدنا رسول الله (ﷺ) : (يا محمد ما جئتنا بشئ نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها فأنزل الله (ﷻ) (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) [3] . فالتعبير

---

(١) التحرير والتنوير ٧٩/٤

(٢) السابق٧٠٢/٣

(٣) جامع البيان ٢ / ٣٩٨ وقريب منه ما رواه الرازي عن ابن عباس " أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله (ﷺ) قبل مبعثه ، فلما بُعث من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل : يا معشر اليهود اتقوا

بالآيات فيه مناسبة للرد على كذبهم وإنكارهم أنه (ﷺ) ما أُنزلت عليه من آية بينة .

* ووصف الآيات بالبينات فيه تسجيل عليهم ومزيد إنكار ، إذ المعنى (أن هذه الآيات لما كانت بينة ظاهرة لم يكفر بها إلا الكافر الذي يبلغ في الكفر إلى النهاية القصوى وتجاوز كل حدّ مستحسن في العقل والشرع) (١) .

* ولعل ذلك يُفسر سر تذييل الآية بلفظة الفسق " وما يكفر بها إلا الفاسقون " فالفسق هو الخروج عن الشئ ، وقد شاع في القرآن ووصف اليهود به والمعنى : ما يكفر بهاته الآيات إلا من كان الفسق شأنه ودأبه ، لأن ذلك يُهيئه للكفر بمثل هذه الآيات ، فالمراد بالفاسقين : المتجاوزون الحدّ في الكفر المتمردون فيه) (٢) .

كما أن التعبير بالآيات هنا فيه ربط على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهة هؤلاء الفاسقين المنكرين.

* فقد أفاد التعبير بالآيات هنا (أن ما أُنزل إليه لا يُكذب به إلا من لا يُؤبه بتكذيبه لكون هذا المنزل دلائل واضحة لا تقصر عن إقناعهم بأحقيتها) (٣) .

وقد تعاون على النهوض بغرض تثبيت فؤاد سينا رسول الله والربط على قلبه أيضا :

* القسم غير الصريح في (ولقد أنزلنا)

الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل الشرك وتُخبروننا أنه مبعوث وتصفون لنا صفته ، فقال بعضهم : ما جاءنا بشئ من البينات ، وما هو بالذي نذكركم فأنزل الله هذه الآية)(مفاتيح الغيب ٣٥٧/٢

(١) مفاتيح الغيب ٣٥٧/٢

(٢) التحرير والتنوير ٣٥٨/٢

(٣) السابق

* نسبة فعل الإنزال إلى ضمير العظمة (أنزلنا)

* ثم الاتجاه إليه (ﷺ) بالخطاب (إليك) .

* وتأتي ملائمة التعبير بالآيات في هذا المقام من وجه آخر وهو:حديثها عن أمور ووقائع في غابر الأزمان لم يكن الرسول (ﷺ) ليحيط بها علما ويقصها كما يجدونها في كتبهم لولا ما أنزل إليه من ربه.

* فقد فسر الطبري المراد بالآيات في الآية هنا بما (حواه كتاب الله الذي أنزله إلى محمد (ﷺ) من خفايا علوم اليهود ومكنون سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كانت في التوراة، فأطلعها الله في كتابه الذي أنزله على نبيه (ﷺ) ، فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلى إهلاكها الحسد والبغي) [1] .

* وإذا ثبت هذا ففي التعبير عن القرآن بالآيات هنا تقرير لرسالته (ﷺ) ، وتأكيد على أن ما يوحى إليه هو الحق من ربه.

* وقد يأتي التعبير بالآيات عن القرآن في مقام:ـ

تحذير حملة هذا القرآن من إتباع الذين أوتوا الكتاب المُفضي إلى الكفر وبيان كيدهم:

وشاهد ذلك قوله تعالى : (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) آل عمران٩٩

* فالمراد بالآيات هنا هي (القرآن ومواعظه) [2] .

---

(١) جامع البيان ٢/٣٩٦

(٢) التحرير والتنوير ٤ /٧٩٥

* ولهذا الآية سياق ومناسبة وردت فيها ذكرها جل المفسرين[١] . وقد روعي في التعبير بالآيات هنا جانب تتابع قراءتها وتواصلها ودوام النظر فيها للاعتبار

* كما أفاد التعبير هنا أن تلاوة آيات القرآن عاصم من مواقعة الضلال وسبيل إلى الصراط المستقيم .

* ولهذا صُدرت الآية بهذا الاستفهام المفيد للتغليظ في الإنكار ، وذلك (تلاوة آيات الله عليهم حالا بعد حال مع كون الرسول فيهم الذي يزيل كل شُبهة ، ويُقرر كل حجة كالمانع من وقوعهم في الكفر) [٢] .

* كما أفاد الاستفهام هنا استبعاد وقوع الكفر منهم وعندهم ما يمنعه وهو: ــ تلاوة الآيات ،ثم وجود الرسول (ﷺ) فيهم يتلو عليهم آيات الله غضة طرية.

* ولذا كان من تمام المناسبة الجمع بين الآيات وبين من أُنزلت هذه الآيات على قلبه الشريف ، فقال تعالى (وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله).

---

(١) خلاصة القول : أن يهود المدينة قد أفزعهم – كعادتهم – ولم يروقهم هذا الود والتحاب الذي ساد بين الأوس والخزرج في ظل الإسلام، على ما كان بينهم من أيام نحس مستمر في أيام جاهليتهم ، فقاموا ينفثون نار الفتنة والتذكير بالأيام السوالف وما كان فيها من حروب وثأر ، وكان الذي تولي كبر ذلك الإثم شاس بن قيس ، فقامت الأوس والخزرج وكادوا يقتتلون حتى جاءهم النبي (ﷺ) وأنكر عليهم صنيعهم بهذا الاستفهام (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟! وقرأ عليهم " يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنت تتلى عليكم آيات الله..." فألقوا السلاح وتعانقوا . حتى قال جابر رضي الله عنه " ما رأيت يوما أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم" انظر " مفاتيح الغيب ١٩٣/٤ – روح المعاني ٢ /٩ – نظم الدرر٢ /١٣٠ – التحرير والتنوير ٧٩٥/٤

(٢) مفاتيح الغيب ١٣٩/٤

* ثم تُضاف الآيات إلى لفظ الجلالة " آيات الله " دون الآيـــات " أو " آيـــاتي " مثلا ، وذلك لتربية المهابة وإدخال الروعة في نفوسهم ، فيفيئون إلى نعمة الله عليهم أن جعلهم إخوانا ، بعد أن كانوا أعداء .

* وفي الوقت الذي تُضاف الآيات إلى لفظ الجلالة – لما سلف ذكـــره ، نجـــد عدم إسناد التلاوة نفسها إلى الرسول (ﷺ) في الآية ذاته ، وذلك (إشارة إلى استقلال كل من الأمرين في الباب ، وإيذانا بأن التلاوةِ كافية في الغرض مـــن أي تال كانت) [1] .

* ومفهوم قوله تعالى" استقلال كل من الأمرين في الباب " تعديد النعم عليهم ، فتلاوة الآيات نعمة مستقلة، ووجوده فيهم (ﷺ) نعمة أخرى ، وتعديد النعم هنا يُقوي منعهم من الوقوع في الكفر.

* وتذكيرهم هنا بنعمة وجود سيدنا رسول الله (ﷺ) فيهم قريب المعنى مـــن قوله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَـــانَ اللَّـــهُ مُعَـــذِّبَهُمْ وَهُـــمْ يَسْتَغْفِرُونَ)الأنفال(٣٣)ففي الآية أمانان من العذاب :

أحدهما : وجود سيدنا رسول الله (ﷺ) فيهم .

وثانيهما : لزومهم الاستغفار.

* ولئن كان رسول الله (ﷺ) قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ، فقد بقيت النعمـــة الأخرى في آيتنا – موضعَ الشاهد – وهي بقاء الآيـــات تُتلـــى علـــى وجـــه الـــدهـــر.

* وبقي الأمان الثاني في آية الأنفال : وأعني به الاستغفار. فجلَّ مـــن أنـــزل أحسن الحديث كتابا متشابها.

---

(١)　روح المعاني ٢ / ٩

* وأرى أن الخطاب في قوله تعالى " وكيف تكفرون وانتم تُتلى عليكم آيات الله" وإن كان موجها في الظاهر للصحابة مراعاة للسياق والمناسبة الواردة فيه الحديث ، إلا إن العبرة بعموم الحكم لا بخصوص السبب – كما يقول علماء الأصول، فالكلام معني به حملة هذا القرآن حتى تقوم الساعة

* ولعل هذا ما يُفسره التعبير بالمضارع في قوله " وانتم تتلى " وما يفيده من ضرورة الاستمرار في تلاوة هذه الآيات حتى بعد لحوق النبي (ﷺ) بالرفيق الأعلى.

* وذلك مُشعر من جانب آخر بتجدد مكر الذين أوتوا الكتاب وتحريشهم بين المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

* وجماع القول أن في الآية هنا(إشارة إلى التمسك بكتاب الله ودينه لسائر المسلمين الذين لم يشهدوا حياة رسول الله (ﷺ) [1] .

من سمات التعبير عن القرآن بالفرقان

عُبّر عن القرآن بالفرقان ــ في الزهراوين ــ في موضع واحد هو:ــ

م	الشاهد	الموضع
١	نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ . مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ	آل عمران ٣ــ٤

فالفرقان هنا – على ما عليه أكثر المفسرين – هو القرآن[2] .

* وهذا الموضع أليق به وأنسب لكونه فرقا بين ما اختلف فيه اليهود والنصارى من الحق والباطل خاصة أن ذكره جاء عقب التوراة والإنجيل

(١) التحرير والتنوير ٤/٧٩٥

(٢) مفاتيح الغيب ٤/١٤٠ ، التحرير والتنوير ٣/٢٦٩ ، تفسير ابن عطية ١/١٥ ، البحر المحيط ٣/٩

وسياق السورة قائم على محاجة وفد نصارى نجران رسول الله (ﷺ) ونسبتهم عيسى إلى غير نسبه وقولهم فيه غير الحق.

فالتعبير بالفرقان في مقامنا هنا في حاق موضعه ، لمجيئه بالبرهان وإزالة الشبهة.

* هذا وقد عُبر عن القرآن ــ في صدر السورة ــ باسم الجنس " الكتاب " وهنا يعبر عنه بالفرقان ، وذلك (للاهتمام وليوصل الكلام به في قوله " إن الذين كفروا بآيات الله " أي بآياته في القرآن) [1] .

* وكذلك يُعبر عن القرآن هنا بالفرقان بعد تقدم ذكره بـ " الكتاب " (تعظيما لشأنه وإظهارا لفضله) [2] . وفي هذا رد على الطبري الذي يرى أنه سبق ذكر القرآن بقوله تعالى " نزل عليك الكتاب بالحق " وعليه فلا وجه لتكريره أخرى هنا بالفرقان ويرى أن المراد بالفرقان هنا (فصل الله بين نبيه محمد (ﷺ) ، والذين حاجوه في أمر عيسى وفي غير ذلك من أموره بالحجة البالغة القاطعة عذرهم وعُذر نظرائهم من أهل الكفر بالله) [3] . وهذا مردود عليه بما سبق ذكره من إظهار فضله وتعظيم شأنه، وتكرير ذكره هنا من باب تعديد النعم بتعديد ذكر خصائصه وأوصافه.

* فذُكر مرة باسم الجنس " الكتاب " بكل ما يستدعيه هذا الاسم من أسرار.

* ثم ذُكر أخرى بـ " الفرقان " بكل ما تُشيعه هذه اللفظة من أنوار ، للإشارة أنه باعتبار كل اسم نعمة على حدة.

* ثم إن توجيه الطبري للفظة " الفرقان " هنا يتفق مع كون المراد بالفرقان هو القرآن وعليه فلا تعارض.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٧٠٦

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٩٣ ، البحر المحيط ٣ /٩

(٣) جامع البيان ٣ /١٤٦

* لأن الله فصل بين رسوله محمد (ﷺ) وبين النصارى في أمر عيسى (عليه السلام) وفي غيره بهذه الآيات البالغات من القرن والحجج القاطعة من مثل قوله :

- (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) (آل عمران٥٩)

- وقوله (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) (آل عمران٦١)

- وقوله تعالى على لسان عيسى بن مريم (إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) (آل عمران ٥١) .

- وقوله " مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ...) (آل عمران ٧٩)

* ثم بنزول آية المباهلة التي أرهبتهم فلم يملكوا معها فكاكا ، وهي قوله تعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)(آل عمران (٦١)

من سمات التعبير عن القرآن بالذكر الحكيم

ورد التعبير عن القرآن بالذكر في الزهراوين في قوله تعالى:ـ

م	الشاهد	الموضع
١	ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ	آل عمران٥٨

تدور مادة "الذكر " حول : النباهة والشرف والشئ المتقدم ، ومن الأخير قوله تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النحل ٤٣ ، المراد بالذكر هنا – والله أعلم بمراده – (الكتب المتقدمة) (١) .

* كما تدور لفظة " الذكر " حول الإشعار والإحاطة والعلم والتذكرة ، وعليه وجه بعضهم المراد من قوله تعالى " وإنه لذكر لك ولقومك" الزخرف ٤٤ أي تذكير وإشعار ولفت انتباه لك (ﷺ) ولقومك. بينما يذهب آخرون إلى أن المراد بالذكر في آية الزخرف : النباهة والصيت الحسن، والشرف الرفيع لمن أنزل هذا القرآن على قلبه ولأتباعه.

* وأيما كان الأمر فقد جاء التعبير عن القرآن بالذكر إثر قصة خلق عيسى بن مريم وما اكتنفها من معجزات .

فحمل الذكر هنا على كون القرآن متمما للكتب السابقة صحيح ،ويصير المعنى وقد تلونا عليك الآن يا محمد من نبأ أخيك عيسى ما يجدونه في كتبهم السابقة وهو قريب الشبه من قوله تعالى " فاسألوا أهل الذكر"

* وقد يكون الذكر هنا بمعنى الذكرى والتنبيه للاهتمام بشأنه ويصير المعنى : خلاصة الأمر فيما حاجوك فيه من شأن عيسى هو ما تلوناه عليك فتذكرْه وقومك واهتم بهذه التذكرة . وهو قريب الوشيجة من قوله تعالى في موضع آخر : (وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الأنعام ٦٨

* وقد يكون المراد بالذكر هنا القرآن الكريم ذاته ، والغرض من ذلك بيان أن هذا القرآن سبب شرف هذه الأمة المحمدية ، ونباهتها وعلو ذكرها .

(١) مفردات الراغب ٢٨٢/١ .

* ويصير المعنى هنا ناظرا إلى المعنى في قوله تعالى : (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) (الزخرف٤٣ ــ٤٤)

* وتأتي أبلغية هذا التوجيه لمعنى " الذكر " هنا من كونه تثبيتا لقلب سيدنا رسول الله (ﷺ) في مواجهة معارضة نصارى نجران وجدالهم حول عيسى وحول نبوة محمد (ﷺ) خاصة إذا أضيف الذكر إلى صفة مُنْزله " الذكر الحكيم " ، فقد أشاعت صفة الحكيم هنا على الذكر " القرآن " من الأنوار ما يقطع ألسنة كل متردد مشكك فيه ، فقد أنزله الحكيم الخبير.

* وقد يكون " الحكيم " وصفا للقرآن ذاته ، وسمي الذكر حكيما لاشتماله (على الحكم أو لكونه محكما ممنوعا من تطرق الخلل إليه) [1] .

* وقيل وصف القرآن بالحكيم (لكثرة نطقه بالحكمة أو لكون الأحكام تُستفاد منه ، أو لكونه ذو حكمة في تأليفه ونظمه وكثرة علومه) [2] .

بل ويوجه الطبري وصف " الذكر " بـ " الحكيم "في ضوء المقام الوارد فيه هنا بكونه (القاطع الفاصل الحق الذي لم يخالطه الباطل من الخبر عن عيسى وعما اختلفوا فيه من أمره فلا تقبلن خبرا غيره .

(١) أبو السعود ١٣٩/٣ ، لسان العرب (ذكر) ، مفاتيح الغيب ٤٧٨/٤

(٢) مفاتيح الغيب ٤٧٨/٤

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده .

وبعد ،،

ففي ختام هذه السياحة القرآنية في رحاب تسمع الأسرار البلاغية لاستعمالات أسماء القرآن في الزهراوين يجمل بي أن أوجز أبرز نتائج هذه الدراسة ومنها : -

- كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى وكماله ، فكثرة أسماء الله تعالى دالة على كمال صفاته وكثرة أسماء النبي (ﷺ) وصفاته دليل على علو مقامه وقرب منزلته من مولاه تبارك وتعالى . وكذا كثرة أسماء القرآن دليل على سمو مكانته وبلوغه المقام الأسمى .

- في تعدد أسماء القرآن رمز إلى أنه باعتبار كل اسم نعمة على حده .

- أظهرت الدراسة أن توظيف كل اسم من أسماء القرآن جاء على الوجه الذي هو أهيأ والذي هو أهدى وأبدع في توظيف اللفظة .

- أكثر أسماء القرآن ورودا - في الزهراوين - هو " الكتاب "ولعل السر في ذلك هو تركيز الحديث في سورة " البقرة "على اليهود ، وفي" آل عمران " على النصارى، وكلاهما أهل كتاب ، فكان في كثرة التعبير عن القرآن - فيهما - بالكتاب إيثار للمشترك بين المسلمين وبينهما ، وهو أن الجميع أهل كتاب سماوي.

- أن الزهراوين من أواخر ما نزل من القرآن، وقد استقرت الأحكام وشُرعت الحدود وفصّلت المعاملات ، وثبت القرآن حفظا وفهما وعملا وتعليما في صدور حملته ، فناسب ذلك كله التعبير بـ " الكتاب " الذي

يختص بـــ (الاحتواء علـــى الأحكـــام والحـــدود بخـــلاف الفرقـــان أو القـــرآن) [١] .

- كثر وصف هذا " الكتاب " في الزهراوين - خاصة البقرة - بكونه منزلا من عند الله مثل (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ) [٢] و (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) [٣] وفي هذا من التسجيل علَى القوم وإدانتهم وإنكار شنيع فعالهم ما فيه .

- **كثر وشاع التعبير عن القُــرآن بـ " الكتـــاب "** فيما نزل لاحقا مـــن الآيات ، وفيه تركيز على سمة من سمات هذا الوحي الخاتم " كتـــابته " وفي التعبير عنه بالكتاب (معجزة للرسول (ﷺ) بان مـــا أوحـــي إليـــه سيُكتب في المصاحف) [٤] .

- في التعبير بـــ " الكتاب " بيان إلى أنه المستحق والمستأهل مـــن بـــين الكتب السماوية أن يسمى كتابا ، وكأن ما عداه في مقابلته دونه كمـــالا وذلك لكـــــونه جامعا لثمرات الكتب قبله .

- كما في التعبير بـــ " الكتاب " إبراز لسمة هيمنة هذا القُرآن على غيـــره من الكتب السماوية .

- **جـاء استعمال لفظة " القـرآن "** في سياق الحديث عن شهر رمضان - الميقات الزماني - لنزول القرآن - وما يستتبع ذلك من التركيـــز فيـــه

---

(١) نظم الـــــــدرر ١/ 289 بتصرف يسير ـــــ عند تفسير الآية ١٥٩ من سورة البقرة

(٢) البقرة٨٩

(٣) آل عمران ٣ .

(٤) التحرير والتنوير ١/٥٥

على سنة قراءته وإقرائه، كما ورثناها كابرا عن كابر ، انتهاء إلى من نزل هذا القرآن على قلبه (ﷺ) ، الذي كان يلقى جبريل فيعرض عليه القرآن في رمضان من كل عام.

- لاحظت الدراسة - كذلك - أن إيثار التعبير بـ " القرآن " كثُر وغلب في أول ما نزل من الوحي [١] وذلك للتركيز على سمة من سمات هذا الوحي المحمدي وهي سمة القراءة والإقراء والحفظ في الصّدور .

- في التعبير عن الوحي المنزل على قلب سيدنا رسول الله (ﷺ) بـ " الكتاب " وبـ " القُرآن " إشارة إلى واجب الأمة تجاه كتابها الخاتم من وجوب النهوض بحفظه في :

(أ) الصدور " القرآن " .
(ب) السطور " الكتاب " .

- أظهرت الدراسة أن في التعبير بـ " القرآن " ، " الكتاب " إشارة إلى مظهرين من مظاهر حفظ الوحي الخاتم حواهما قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [٢] .

- **شاع التعبير عن القرآن بالموصولية** تعظيما لجانب هذا المنزل ، وإعلاء لشأنه حيث اكتسب شرفه وجلاله وعلو قدره من جلال وعلو شأن من أنزله ، وجاء ذلك في مواجهة المشككين فيه أو المعرضين عنه .

---

(١) راجع ص من البحث
(٢) الحجر ٩

- كما برز التعبير بالموصولية في جانب التأكيد على ربانية مصدر هذا الكتاب الخاتم مثل (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) [1] (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) [2] وفي هذا مزيد تأكيد على ربانية هذا المصدر ، وأنه لا ينبغي لمرتاب أن يرتاب فيه .

- وفيه أيضا تسجيل وإنكار على الممارين فيه المكذبين به.

- في التعبير بالموصولية تأكيد على خروج هذا القرآن من مشكاة الكتب السماوية الأخرى نفسها ، فلماذا الإيمان ببعضها والكفر ببعض !

- جاء التعبير بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر كما في قوله تعالى (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [3] وفيه تحفيز وحض لباقي أهل الكتاب أن يقتفوا أثر سلفهم ممن آمن بهذا القرآن كما آمن بما أُنزل إليهم من كتب .

- **ورد التعبير عن القُرآن بـ " الآيات "** إثر الحديث عن أنباء ما قد سبق مما لا يُحيط بها إلا نبي يُوحي إليه ، وفي هذا تأكيد على صدق رسالته (ﷺ) ، وأن هذا القرآن هو الحق من ربه .

---

(١) البقرة ٤

(٢) البقرة ٤١

(٣) ١٩٩ ـــ آل عمران ـــ راجع صـــــــــــ من هذه الدراسة

- في التعبير بالآيات " إشارة إلى ضرورة تتابع قراءتها وتواصلها ودوام النظر فيها للتذكرة ، كما فيه بيان إلى أن هذه الآيات سبيل إلى صـــراط اللـــه المستقيم ، وعاصم من مواقعة الضلال كما فـــي قولـــه تعـــالى (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَـــنْ يَعْتَـــصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [1] .

- **ورد التعبير عن القُرآن بـــ (الـذكـــر)** في مقام التنبيه عَلى جانـــب الشرف والنباهة والصيت الحسن في هذا القرآن ، الأمر الذي يعكس أثر هذا القُرآن على أتباعه ، وبيان أن شرفهم وعلو ذكرهم في الانتـــساب إليه . ففي التعبير بالذكر اهتمام بإبراز أثر القُرآن في أتباعه في المقـــام الأول ، صارفا النظر عن غيرهم.

- **ورد التعبير عن القرآن بـــ " الفرقـان "** تنبيها على كثرة ما فيه مـــن بيان التفرقة بين الحق والباطل .

- عُبر عن القرآن بالفرقان ، إما لتفرق نزوله – فقد استمر ثلاثا وعشرين سنة – وإما لفصله بحجته البالغة ودلائله الواضحة وأدلته الدامغة بـــين المحق والمبطل .

- ورد التعبير عن القُرآن بالفرقان فَي مقام الرد على النصارى وما نسبوا عيسى إليه ، وقولهم فيه غيـــــر الحق ، فكان فصلا بين الحق والباطل في هذا الشأن.

(١) آل عمـــران ـــــ ١٠١ ـــــ راجع صـــــــــــــــــــ من هذه الدراسة

التوصيات

- يوصي الباحث بضرورة استكمال البحث في إبراز الخصائص البلاغية لأسماء القرآن في القرآن ، ولو بأن ينهض لها غير واحد من الباحثين يتناول كل واحد أكثر من اسم من أسمائه لبيان أهم خصائص وروده البلاغية في القرآن كله .

- يوصي الباحث بضرورة استجلاء النكات البلاغية لمتشابه النظم في بعض أوصاف القرآن في القرآن مثل وصفه بالهدى مثلا،فقد تنوعت فيه التراكيب فتارة يوصف بـ (**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**) [1] وتارة (**هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**) [2] وتارة (**هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**) [3] .

- يوصي الباحث بضرورة دراسة الفروق البلاغية بين (التلاوة – القراءة) للوقوف على مقامات استعمال لغة القرآن لكل منهما، فقد تغاير التعبير عنهما في مواطن عديدة.

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده هو أهل الفضل والمن والعطاء ، وما كان من تقصير أو زلل فمن نفسي ومن الشيطان والله ورسوله والقرآن منه براء ، وحسبي أني مجتهد ، إن أصاب فله أجران ، وإن تك الأخرى فله أجر واحد .

---

(١) البقرة٢

(٢) البقرة ١٨٥

(٣) النحل ١٠٢

(رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

وصل اللهم وسلم وبارك وأكرم وأنعم على من أُنزل هذا القرآن على قلبه .

كتبـــه

معوض محمد الخولي

البلد الأمين

في ٣٠ / ٦ / ١٤٣١هـــ

فهرس المصادر والمراجع

م	الاســـــم
١	إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – الرافعي – ت عبد الله المنشاوي – مكتبة الإيمان – أولى ١٤١٧ هـ
٢	التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور – دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧م
٣	تفسير أبو السعود – ط . دار إحياء التراث العربي – بيروت
٤	تفسير البحر المحيط – أبي حيان الأندلسي – ت مجموعة – دار الكتب العلمية – بيروت
٥	تفسير الطبري ت: محمود شاكر– ومراجعة أحمد شاكر– مكتبة ابن تيمية بالقاهرة
٦	تفسير الفخر الرازي – دار الفكر للطباعة والنشر
٧	تفسير الكشاف– ط . دار إحياء التراث العربي .
٨	تفسير روح المعاني – ط .دار إحياء التراث العربي – بيروت –
٩	تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – الإمام البقاعي – نسخ وتنسيق مكتبة مشكاة الإسلامية
١٠	دلائل الإعجاز – الإمام عبد القاهر الجرجاني – مكتبة الخانجي – ت العلامة محمود شاكر
١١	زاد المسير في علم التفسير " لابن الجوزي " – ط المكتب الإسلامي – دار ابن حزم – بيروت ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
١٢	سنن الترمذي – عناية أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان – مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض ١٤١٧هـ

١٣	سنن الدارمي – ت .حسين سليم أسد الدارني – دار المغني للنشر
١٤	العزف علي أنوار الذكر د. محمود توفيق سعد ط. دار الكتب الجامعية. شبين الكوم – أولى– ١٤٢٤هـ
١٥	مفردات الراغب الأصفهاني – موقع الدرر السنية الالكتروني
١٦	مفردات ألفاظ القرآن-الراغب الأصفهاني – مكتبة الدرر السنية
١٧	النبأ العظيم – د محمد عبد الله دراز– نشر دار الثقافة – الدوحة ١٩٨٥م